ممالك النوبة فى العصر المملوكى

باز ، كرم الصاوى .
ممـاليك النوبة فى العـصـر المملوكى : اضمحلالها وسقوطها وأثره فى انتشار الإسلام فى سـودان وادى النيل/ كـرم الصـاوى باز .-ط١ .- القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٦ .
٦٢٤ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ٢-٢٢٣٩-٠٥-٩٧٧

نوال على محمد
باحث ثان
بدار الكتب والوثائق القومية

المؤلف:

● دكتوراه فى التاريخ الإسلامى والوسيط ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ١٩٩١م

● الخبرة الأكاديمية

١ . الإشراف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة .

٢ . أستاذ مساعد بالمملكة العربية السعودية .

٣ . عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

٤ . شارك بأوراق بحثية فى مؤتمرات عديدة فى جمهورية السودان ، وتشاد ، والمملكة العربية السعودية ، والجمهورية التونسية ، والجماهيرية العربية الليبية ، ومالى وقد نشر له عديد من الأبحاث الأكاديمية منها :

● نظم التجارة الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان العربى .

● البيت والعائلة السنغائية زمن أسرة الأسكيين ، ندوة المجتمعات الإفريقية بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية ، مايو ٢٠٠٥ جامعة القاهرة .

● مصر والنوبة فى عصر الولاة دراسة فى التاريخ الاجتماعى فى ضوء أوراق البردى العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٦ .

يقدم هذا الكتاب موضوعاً هاماً وهو : ممالك النوبة فى العصر المملوكى : اضمحلالها وسقوطها وأثره فى انتشار الإسلام فى سودان وادى النيل (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ /١٢٥٠ هـ - ١٥١٧م) اختيار موفق للعلاقات القائمة بين مصر وسودان وادى النيل ؛ فهما يمثلان كيانا واحدا لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر .

هذا ومع تطور الفن الحربى فى عصر دولة سلاطين المماليك ، أخذت مكانة مصر فى الصدارة تزداد قدماً وترسيخاً للأسس المتينة التى قامت

مماليك النوبة فى العصر المملوكى ـــ

الواقعة بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السابع عشر ، وهى ممالك العبدلاب والفونج وهى الواقعة جغرافيا فى منطقة دراستنا ، ثم ثقلى والفور والمسبعات ، وكانت أولى هذه الممالك ظهوراً مملكة العبدلاب التى نشأت فى الجزء الشمالى من السودان الشرقى مهد بعض الحضارات القديمة ومركز الثقل الحضارى والسياسى فى عهد علوه ، وقد تعرضت هذه المنطقة لقدر كبير من النفوذ العربى ممثلا فى استقرار مجموعات كبيرة من العرب فيه ، ومن ثم تمت الغلبة للثقافة العربية ، وقد أدى ازدهارها إلى ظهور عدد من المراكز الدينية الهامة تمكنت من أن تتصدر الزعامة الدينية والروحية وأن تكون مصدر إشعاع اسلامى وحضارى لباقى أقاليم السودان الشرقى . فما أن تمت لهذه الأقاليم الصدارة الثقافية والدينية حتى بدأت هجرة العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية إلى المناطق حديثة العهد بالإسلام والواقعة على أطراف دار الإسلام ، ولم تبلغها الدعوة الإسلامية سواء أكانت فى داخل تكوينات سياسية فى السودان الشرقى أو فى خارجه ، وبعبارة أخرى فإن معظم من حملوا المشعل كانوا جيلا جديدا من المسلمين (من النوبة المستعربين) وأمثالهم من الركابية والمحس والجعليين .

ودراسة هذه الفترة الزمنية من تاريخ مصر المملوكية ، وسودان وادى النيل يؤكد أنها فترة متميزة ، وبداية عهد جديد ، وخاصة لمجتمع سودان وادى النيل ، ولكن هذه المرحلة التاريخية كان من الصعب الإلمام بكل ما حدث فيها من تطورات ، والسبب فى ذلك كله ما خلفه الأوائل من

عليها ، ألا وهى : الجهاد ، والروع ، والمشاركة ، والتفاوض .

وعملاً بهذه الأسس التى قامت عليها الدولة المملوكية امتد النفوذ المصرى نحو مملكة النوبة المسيحية (المقرة) ، وذلك منذ أن اختط ملكها داوود سياسة هجومية ضد مصر بغزوه كل من عيذاب وأسوان فى سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م ، ولذلك قامت مصر بحملات عسكرية الغرض منها وضع حد لهجمات ممالك النوبة المسيحية ، ثم لجعل مملكة المقرة دولة تابعه لمصر .

وقد كانت حملات سلاطين مصر من أهم الأسباب التى قوضت الإطار السياسى لنظام الحكم فى بلاد النوبة ، ومهدت لغلبة العرب والمسلمين ؛ فقد استطاع خلفاؤهم من بنى الكنز اعتلاء عرش النوبة فى سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م معتمدين على نظام الوراثة عن طريق الأم ، وعلى تأييد النوبيين المستعربين والعرب الذين صاحبوا الجيوش المملوكية ، وبذا انتقل الحكم إلى فرع نوبى مسلم مستعرب ، وبسقوط مملكة المقرة المسيحية فى أيدى المسلمين انهار السد المنيع الذى ظل عدة قرون يحول دون توغل العرب فى حوض النيل الأوسط ، ومن ثم تدفقت القبائل العربية ، لتغير هوية الثقافة النوبية ، بشيوع الثقافة العربية الإسلامية المنطلقة من مصر منبر الإسلام والأزهر الشريف .

ولما وضحت غلبة الإسلام وشيوع الثقافة العربية ، وانتشار القبائل العربية فى أجزاء كبيرة من السودان الشرقى ، ظهرت سلسلة من السلطنات الإسلامية التى امتدت عبر هذه الأقاليم فى الفترة

السودانيين ، وقد يثرى هذه الدراسة التاريخية وثائق معاهدة لهذه الفترة فى سودان وادى النيل ، لأن من بينهـا وثائق تتـعلق بالأرض والخـراج ، وإسناد المناصب ، وأنظمة الإدارة ، وطرق التجارة ، وأثمان البضائع ، والمواد الغذائية ، وشراء المنازل ، وعقود الزواج والطلاق ، فـضـلا عن بعض المكاتبـات الخاصة التى تكشف عن بعض العادات والحيـاة الاجتماعية فى سودان وادى النيل ، وتبرز الدراسة أيضا التغيرات التى أعقبت هذه السقوط ، اعتماداً على الوثائق التى جمعت من السودان والدراسات الأركيولوجية من النوبة ، وعيذاب ، وقصر إبريم ، وثغر أسوان .

● ويعتبر العهد المملوكة (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) نقطة تحول حاسمة فى علاقة مملكة النوبة (أو المقرة) ، بمصر الإسلامية ؛ فقد اتخذ الملك داود سياسة هجومية ضد مصر عندما غـزا كل من عـيـذاب وأسـوان فى عـام ٦٧١هـ / ١٢٧٢م وكـان رد المـمـاليك أن أرسلوا سلسلة من الحملات العسكرية لوضع حد لهجمات النوبة ، وجعل مملكة المقرة دولة تابعة لمصر ، وتحقيقا لهذه السياسة استغل سلاطين مصر خلافات البيت الحاكم حول اعتلاء العرش ، وبعثوا بالأمراء النوبيين الذين أسـروا وعـاشـوا فى مـصـر على رأس تلك الجيوش ، وقد كانت حملات سلاطين مصر من أهم الأسـبـاب التى أضـعـفت الإطار السـيـاسى لنظام الحكم فى بلاد النوبة ، ومهدت الغلبة العرب الذين استطاعوا روادهم من بنى الكنز اعتلاء عرش النوبة من سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م مـعـتـمـدين على نظام الورثة ، وانتقلت السلطة داخل الأسرة الحاكمة من فرع نوبى مسيحى إلى فرع نوبى مسلم مستعرب .

وبسقوط مملكة المقرة المسيحية فى أيدى المسلمين إنهار السد المنيع الذى كان ، لعدة قرون يحول دون توغل العرب فى حوض النيل الأوسط ، ومن ثم تدفقت القبائل العربية القادمة من مصر إلى بلاد النوبة .

ومن ثم تضافرت عدة عوامل مهدت لهذا الاضمحلال السقوط منها :

١ . تدفق العرب المهاجرين إلى بلاد النوبة وأرض البجة وإقامتهم بها .

٢ . استتباب النفوذ المصرى بين النيل والبحر الأحمر .

٣ . الصراعات الإقليمية فى هضبة الحبشة وشرق أفريقيا وأثرها على التدخل المصرى فى النوبة .

٤ . ضعف النظام الكنسى وإحلاله بالنوبة .

٥ . ضعف التجارة الدولية ، وانقطاع التجارة مع مصر ، وأثر ذلك على ممالك النوبة .

وقد حرص سلاطين المماليك على الاهتمام بثغر عيذاب ،ويتضح هذا منذ أيام الظاهر بيبرس بإعداده حملته الكبرى على بلاد النوبة فى عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م ، وهى الحملة التى هزت أركان النظام النوبى ، وكانت من أقوى أسباب اضمحلال مملكة المقرة .

● وكان وصول المماليك إلى الحكم فى مصر نقطة تحول فى تاريخ القبائل العربية فى مصر عامة ، وفى بلاد النوبة خاصة ، وهى تتعرف على الدور الحقيقى الذى لعبته دولتى المماليك فى هذه الفترة

فى تاريخ المنطقة لابد من دراسة علاقات المماليك بالقوى المحلية وهى القبائل العربية فى منطقة الصعيد ثم معرفة مدى تأثير هذا الصراع على مملكة المقرة النوبية .

ويتضح مما سبق الحقائق الآتية :

١ . إن بلاد النوبة منذ الربع الأول من القرن الرابع عشر ، لم تعد وطن النوبيين فحسب بل شاركهم فيها قبائل عربية كثيرة من غير بنى كنز بل إن كثيرا من الجماعات العربية التى تعيش فى مصر اشتركت فى الحملات المملوكية على بلاد النوبة مدة نصف قرن من عام ١٢٧٦ الى ١٣٢٣م ، ولابد أن كثيرا من هذه الجماعات فضلت البقاء فى بلاد النوبة عقب كل انسحاب للقوات المملوكية فى مصر .

٢ . إن العرب اختلطوا بالنوبيين واعتنق كثير من هؤلاء الدين الإسلامى منذ القرن التاسع الميلادى فى أرض مريس ، ثم فيما يليها جنوبا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل .

٣ . ورغم سقوط مملكة المقرة المسيحية إلا أنه قد ظل بقايا من الديانة المسيحية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل ، ويعتقد انه لم يكد ينتصف القرن الرابع الميلادى حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام باستثناء أقلية ظلت على المسيحية ، حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ؛ حيث ظلت تحج إلى بيت المقدس .

٤ . غلبة العنصر العربى فى بلاد النوبة منذ استقرار عرب جهينة بها أدى إلى زيادة الاختلاط بالنوبيين وتحويل الأقلية المسيحية إلى الإسلام .

٥ . إن الكنيسة النوبية دائما فى حاجة لأن تتصل بمنبعها وهى كنيسة الإسكندرية ، للحصول على الأساقفة غير أن هذه الصلة الدينية قطعت نهائيا منذ عهد البطريرك سيريل ١٢٣٥م ، فتركت دون عون خارجى . فتضعضع مركزها وجاءت نهايتها حوالى سنة ١٣٥٠م ، ومنها أن دور رجال الدين النوبيين كان سلبيا فكثيرا ما تخلوا عن ملوك النوبة وانضموا إلى المسلمين .

٦ . إن مملكة النوبة المسيحية ظلت تقاوم وحدها الضغط العربى والمملوكى دون عون خارجى ، فلم يتعاون معها أى من الممالك المسيحية المجاورة ؛ فالنزاع الذى نشب بين ملوك النوبة وملوك علوة كان من أهم العوامل التى عجلت بسقوط مملكة النوبة المسيحية ، أما ملوك الحبشة من البيت الزغوى فلم يمدوا يد المساعدة لملوك النوبة ضد السلطنة المملوكية أو القبائل العربية لانشغالهم فى الصراع مع القوى المحلية المملوكية فى الحبشة وشرق أفريقيا .

٧ . اضطراب الأحوال الداخلية لبلاد النوبة فى القرن الرابع عشر الميلادى بسبب الفوضى التى أثارها بنو الكنز وغيرهم من القبائل العربية مما أثر على تدهور التجارة النوبية ، وبالتالى أصبحت البلاد مهيأة لتدخل السلطة المملوكية لمواجهة المخاطر المتمثلة فى هؤلاء العربان .

٨ . تهديد ثغرى عيذاب وأسوان ، جعل السلطنة المملوكية تنظر بعين الاعتبار لهذه المخاطر وبالتالى أعد الظاهر بيبرس حملته الكبرى التى هزت أركان النظام النوبى وكانت من أقوى أسباب اضمحلال وانهيار مملكة المقرة .

ومن أسباب سقوط مملكة علوة ومنها النزاع بينها وبين مملكة المقرة ، وحرص مقرة على الحصول على الرقيق للتجارة ، وكان أحد الأسباب التى أدت إلى ذلك النزاع ، إذ لابد أن ذلك قد دفعها إلى محاولة الحصول عليه من جيرانها ، كما تعرضت مملكة علوة لإغارات مملكة الزغاوة منذ القرن الثانى عشر الميلادى على طرق القوافل التجارية ما بين بحيرة تشاد غربا إلى النيل شرقا ، وفى القرن الخامس عشر حينما ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية فى المنطقة ظهر الأثر العربى الإسلامى فى تطور الحياة الاجتماعية والسياسية ، مما عجل بزوال المملكة المسيحية فى علوة ، وتمثل هذا الأثر فى اختفاء نظام الوراثة القديم إلى نظام الأمومة وأصبح الحكم وراثيا فى بيت شيخ القبيلة أو الدار .

وقد ظهرت القوى السياسية الجديدة التى ظهرت بأرض النوبة ومنها :

١ . العبدلاب : وأصلهم من سودان وادى النيل إلى شعبين عظيمين هما : قحطان وعدنان ؛ وهذان الشعبان هما : مجموعة جهينة ويرمز بها إلى عرب الجنوب أو القحطانيين ، والمجموعة الجعلية أو العباسية ويشار بها الى عرب الشمال أو العدنانيين وأما كلمة العبدلاب فإنها تعنى القبيلة أو الجماعة التى تنتسب إلى عبد الله جماع ذلك لأن لفظ أب الذى تنتهى به أسماء كثيرة عربية فى السودان يعنى فى مدلوله عائلة أو قبيلة .

وقد اتفقت المصادر على أن قرى سقطت بعد مقاومة عنيفة فى يد العبدلاب ، وتقول بعض الروايات أن حسب الله العنجى سلم قرى للعبدلاب ونجا بنفسه هربا عبر النهر إلى الغرب ، ثم إلى جبال النوبا ، ويقول رأى آخر أن سيطرة العبدلاب على قرى الى وقت سابق على سنة ١٥٠٤م حين وقع الاتفاق بين العبدلاب والفونج ، ومن الحقائق المعروفة أن قرى ظلت تحت سيطرة العبدلاب الكاملة خلال الحقبة التى عرفت بعهد الفونج ولم يكن فى عاصمته قرى ومن هنا جاء الخلط باعتبار أربجى - عنده - عاصمة للعبدلاب .

وخلاصة ذلك أن مشيخة العبدلاب امتدت شرقا إلى سواكن وبلاد الحبشة فى عهد الشيخ عبدالله جماع ، ومن المحتمل أن يكون القائد العبدلابى الذى تم على يديه فتح سواكن هو ابن الشيخ عجيب الكبير .

سلطنة الفونج الإسلامية

أصل الفونج وموطنهم : يرجع الباحثون موطن الفونج أو أصلهم إلى واحدة من ثلاث مناطق : بلاد الحبشة ، وبلاد البرنو ، ومنطقة الشلك على النيل الأبيض ويرجع نسبهم إلى بنى أميه ، بينما تتفق بلاد الحبشة والبرنو فى أنهما وقعتا تحت مؤثرات إسلامية قبل قيام مملكة الفونج ويتضح من هذا الوصف أن رعايا الفونج كانوا فى أول أمرهم رعاة يهتمون بتربية الماشية وهو وصف يتفق مع ما أشارت إليه أقدم وثيقة مخطوطة لكاتب الشونة .

ويتناول أيضا أن زحف الفونج نحو الشمال قد اقترن بموضع يحمل مثل هذا الاسم ، وهو يقع فى المنطقة الجبلية الواقعة جنوب غرب سنار وقد ذكر بروس صراحة أن المنطقة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض وجنوب سنار وغرب الحبشة مليئة بالذهب ورجح بأنها بلاد الفونج ، ومن قبله لاحظ روبينى كثرة التبر فى ديار الملك عمارة وكيف أن الملكة ووصيفاتها وعامة الإماء كن يتزين بالحلى الذهبية وبها يسترن عوراتهم .

وقد ارتبط الأصل الأموى للفونج بالحبشة أيضا ، فهناك نسبة إجماع بين الروايات السودانية على أن أجداد الفونج من الأمويين قد اتخذوا من الحبشة موطنا لهم .

وقد اتضح ان الأصل الشلكاوى للفونج مع تعذر إثبات وجود صلة عرقية بين الشلك والأسر الحاكمة فى مملكة الفونج فهذا لا ينفى وجود وشائج ثقافية ولغوية بين الشلك والشعوب التى تسكن الجزء الجنوبى من مملكة الفونج ؛ والتى تعرف بمنطقة فازوغلى أو جبال الفونج والتى توصلنا إلى أنها مهد الأسرة التى أنشأت مُلك المملكة .

وأخيرا هنالك شبه إجماع بين هذه الروايات على أنه عربى مسلم وربما كان أمويا وترجح خلاصة آراء ابن خلدون حول هجرة جهينة أنهم قد بلغوا أطراف الحبشة الشمالية الغربية أو الجزء الجنوبى من سودان وادى النيل .

وهكذا تم ميلاد هذه الممالك الإسلامية أوائل القرن السادس عشر الميلادى على أنقاض مملكة علوة المسيحية .

النتائج الاقتصادية لسقوط ممالك النوبة

أدت عملية سقوط ممالك النوبة المسيحية إلى نتائج اقتصادية هامة فى المنطقة وسوف نعرض أهم هذه النتائج فى مجالات الزراعة وتربية الحيوان ، والتعدين ، والصناعة ، والتجارة ، وطرق المواصلات .

الزراعة وتربية الحيوان :

ذكر أن الأرض فى بلاد النوبة وما والاها جنوبا على ضفاف النيل حتى سنار لا تقدر بالفدان كما يفعلون فى مصر والشام ، ويقال إن بعض الأثرياء كانوا يملكون عددا من السواقى بينما كان ستة أو ثمانية من المزارعين الفقراء يشتركون فى ساقية واحدة وحين تنتج الزراعة فإن الساقية تغل من القمح أو الشعير من ثمانية إلى مائة أردب . وقال إن نسبة ما يزرع من القمح والشعير الربع قمحا وثلاث أرباع شعيرا .

ومن المعروف أن العمارة فى بلاد النوبة لم تقم إلا على شاطىء النيل ، خاصة فى إقليم مريس ؛ حيث يضيق الوادى بينما يتسع النهر فينقب النوبيون الأرض التى تنكشف عن انخفاض النيل لتخصبها بالروث والطمى ، وزراعة بعض المحاصيل الزراعية مثل : القمح ، والشعير ، والذرة ، والدخن ، والسمسم ، واللوبيا ، والفول ، والعدس ، والبصل ، والحمص ، والزيتون ، والفجل الذى اشتهرت به كل مناطق النوبة من حيث الوفرة والجودة ، وكذلك البطيخ الذى كان يزرع بكثرة فى مناطق خصبة مثل جزيرة بلاق والأعتاب ، ومن كل الثمرات وربما انفردت بلاد النوبة بمحاصيل زراعة لم توجد فى مصر زمن المماليك .

أما عن تربية الحيوان والطيور فقد اشتهرت بلاد النوبة بأنها مليئة بمختلف أنواع الحيوانات والطيور والتى لا توجد مثلها فى أى بلد من بلدان العالم مستأنسة وغير مستأنسة ، وتعتبر بلاد البجة فى الصحراء الشرقية المتاخمة لسودان وادى النيل أكبر المناطق ربما للإبل ؛ فالبجة أهل بادية لايعرفون الزراعة ، وإنما هم يتبعون الكلأ حيثما كان للرعى ، وكل ثروتهم الحيوانية الإبل التى لا تزال حتى وقتنا الحاضر ؛ وهى أكبر سوق للجمال فى مصر يتجه إليه البجة هو سوق دراو .

هكذا نرى أن ماشية البجة أكثر تجانسا فى الشمال ؛ حيث تغلب تربية الإبل ثم تزداد اختلاطا وتنوعا كلما اتجهنا إلى الجنوب .

أما بالنسبة للتغذية فقد كان المصدر الاقتصادى الرئيسى الذى جذب هجرات القبائل العربية وخاصة إلى وادى العلاقى فى العقد الرابع فى القرن الثالث الهجرى ، وقد ظلت مناجم الزمرد بالنوبة تغذى الأسواق الخارجية طوال العصر الأيوبى والمملوكى ، وإلى جانب المعادن الثمينة اشتهرت بلاد النوبة بمحاجرها العديدة إلى جانب السنباذج والشب .

إلى جانب تلك الحرف والصناعات التقليدية مثل صناعة الخزف ، وأيضا صناعات تقليدية مهر بها النوبيون منها : صناعة الحصر ، والسلال ، والأطباق من سعف النخيل وشجر الدوم ، وأيضا بالنسبة للتجارة مثل تجارة الرقيق فقد شهدت مصر فى عصرها المملوكى تدفق أعداد كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود فقد كانت هناك أسواق معروفة لتجارة الرقيق أو تجميعه فى بلدان وموانىء معينة اشتهرت- خلال العصر المملوكى- ذوبلة ، وبربره ، ودارفور ، وشندى .

أما الطرق والمواصلات فكان هناك طرق القوافل ، وكانت مصر المملوكية تحرص على أساس المحافظة على الطرق التجارية بين مصر وبلاد النوبة ، وطرق القوافل التجارية التى تربط مصر والنوبة عند أسوان وهى ثلاثة طرق : الطريق الأول : وهو الطريق الذى تسير فيه القوافل بجوار النيل ، والطريق الثانى كانت تخترقة القوافل عبر الصحراء الشرقية ومنها الشاسعة والطريق الثالث كانت تجوبه القوافل فى الصحراء الغربية ويسمى درب الأربعين .

النتائج الاجتماعية لسقوط الممالك فى النوبة :

تتضمن الدراسة القبائل العربية التى سكنت بلاد النوبة فى العصور الوسطى ؛ نرى القحطانيين والعدنانيين ممثلين تمثيلاً قوياً فى تركيبها الاجتماعى ولابد أن يكون هناك مناطق للجذب نحو الاستيطان ، وخاصة بعد أفول مملكة علوة المسيحية التى كانت عاصمتها سوبا مركز السلطة القديمة ، ولطبيعة غناها وخصوبة أراضيها الواقعة على النيل ، ولوقوعها على الطريق التجارى المعروف بدرب الجمل- الذى كان يسير محاذيا للنيل- وتسير عليه القوافل التجارية من سنار وماوراءه إلى شندى والدامر وماوراءها إلى مصر مارا بالحلفا .

ومما لاشك فيه أن سقوط دولة علوة المسيحية كان له صدى بعيد المدى فى المنطقة

العربية كلها ، وعلى أثره انتقلت الجماعات والأفراد إلى ديار الفونج والعبدلاب من مصر ، والحجاز ، والشام ، والمغرب ، والأندلس ، واليمن ، والعراق وغيرها ، ونستدل على ذلك من أسماء الشيوخ والعلماء الذين ذكرهم صاحب الطبقات وغيره ، وقد يكون كثير من هؤلاء أتوا مع جماعات من عشائرهم أو قبائلهم ، وقد يكون دافعهم إلى الهجرة الانضمام إلى بقية أهلهم الذين سبقوهم واستوطنوا فى البلاد المختلفة .

أما النتائج الثقافية لسقوط ممالك النوبة:

نتناول النتائج الثقافية لسقوط ممالك النوبة المسيحية ؛ فقد ظهرت بصورة جلية منذ أواخر القرن الرابع عشر وفى القرن الخامس عشر على إثر قيام المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط ومنها تركزت الهجرات العربية فى استيطانها بعد المشوار الطويل من تنقلها صوب الجنوب ، والجنوب الغربى ، والجنوب الشرقى فقد كان لهذين الحادثين الكبيرين : أعنى تشكيل السلطنات الكبرى ، وتوزيع القبائل على السودان الشمالى كله ، آثار عميقة فى المجتمعات السودانية وفى نشر الثقافة العربية الإسلامية .

وهناك عدة عوامل مؤثرة على الحياة الثقافية ومنها :

١ . انتشار الدعوة إلى الإسلام .

٢ . انتشار القبائل العربية واستقرارها وأثر ذلك فى لهجات السودان .

٣ . العوامل الخارجية المؤثرة فى تطور السودان الثقافى .

ويتضح أثر مصر الثقافى فى سودان وادى النيل من خلال أزهرها الشريف ؛ فقد أصبحت مصر مقصد العلماء المسلمين من كل مكان ، يأتونها ليجدوا فى رحابها الانفتاح الثقافى فكانت القاهرة مركزاً للإشعاع العلمى والثقافى فى العالم الإسلامى كله زمن المماليك تدرس بها سائر العلوم الدينية واللغوية .

وأخيراً أثبتت الدراسة أن العصر المملوكى فى مصر قد شهد قمة الإشعاع الحضارى فى تاريخ مصر الإسلامية ، وكان لابد لهذا الإشعاع الحضارى أن يمتد جنوباً إلى بقية أرض وادى النيل ؛ فمصر والنوبة توأمان فى ارتباط المصالح ولا أدل على هذا الربط من اعتماد البلدين على شريان حياتهما ، ومصدر العطاء لشعبهما مما يجعل توجه مصر نحو الجنوب أمراً حتمياً منذ ما قبل التاريخ وحتى الوقت الحاضر .

يقدم الكتاب موضوعاً فى غاية الأهمية فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية فى سودان وادى النيل ، والذى يضفى العلاقة القائمة بين مصر والنوبة فقد امتدت السيادة المصرية نحو ممالك النوبة المسيحية (مملكتا المقرة وعلوة) ، وشيوع الثقافة العربية الإسلامية المنطلقة من مصر منبر الإسلام والأزهر الشريف .

ويأتى هذا الكتاب نتاج تخصص دقيق فى الدراسات الأفريقية ويعمق فى الصراع الثقافى ؛ وتغير الهوية النوبية لعصر الممالك والمشيخات الإسلامية (مملكة الفونج ، العبدلاب ، تقلى ، المسبعات ، الفور) .

وهذا الكتاب يهم المكتبات المتخصصة وطلبة كليات الآداب قسم تاريخ وبعض الباحثين المهتمين بتاريخ ممالك النوبة والأبحاث الخاصة بها من حيث الملبس والمأكل والمشرب .

والمستفيدين من قراءة الكتاب المهتمين بالدراسات الاجتماعية والعادات الاجتماعية .

المصادر والمراجع :

وقد اعتمد المؤلف فى هذه الدراسة على عدد من المصادر من أهمها : الوثائق وتأتى من المقام الأول بين مصادر التاريخ الإسلامى ومن أهمها وثيقة الزواج الملكية الخاصة لملك دنقلة الربيعى عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢م .

وأيضا وثيقة بالغة الأهمية لأحد مشايخ العبدلاب يرجع تاريخها إلى وقت مبكر من حكمهم ، وأيضا المخطوطات السودانية تاريخ مختصر بأرض النوبة بجانب بعض المصادر التاريخية مثل كتاب المقريزى وهو أكثر المؤلفين إسهاما وتفصيلا ، وكتاب المواعظ الذى يحوى كثيراً من المعلومات التى تهمنا فى موضوعنا لأنها تتكلم عن بعض القبائل العربية وهجرتهم إلى بلاد النوبة .

ومن أهم هذه المصادر وأكثرها أهمية كتاب البلدان لمؤلفه اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) .

ومن كتب الموسوعات الهامة فى دراستنا كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الكندى المعروف بالنويرى وكتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لمؤلفه شهاب الدين أبو العباس ومن أهم هذه المصادر وأقدمها : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لمؤلفه ساويرس بن المقفع .

ومن المراجع العربية الحديثة التى اعتمد عليها المؤلف :

- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها/ عبدالعزيز الشناوى ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، جـ١ .
- الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام ،دراسة مقارنة/عبد السلام الترمانينى ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت (عالم المعرفة) ، ١٩٨٤م .
- تاريخ فن صياغة الحلى النوبية والسودانية/ على زين العابدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨م .
- النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك/ قاسم عبده قاسم ، ط١ . والمعارف ، ١٩٧٨م .
- الصعيد فى عهد شيخ العرب همام / ليلى عبداللطيف أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨م .
- دور الأزهر فى السودان / محمد سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .